مقدمة

اطلعت منذ سنين على كتاب فى دار الكتب المصرية اسمه " الكواكب الدرى فى مسائل السلطان الغورى" ، يتضمن آراء السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك المصريين فى مسائل من الفقه والتفسير وغيرها عرضت فى مجالسه. والكتاب نسخة مصورة عن نسخة فى استنبول هى نسخة السلطان التى كتبت له فى القاهرة وأهديت إلى خزانة كتبه.

قرأت الكتاب وتقريت سيرة السلطان فى العلم والأدب، فعثرت على أبيات له بالعربية والتركية، وألقيت محاضرة فى الجمعية الجغرافية موضوعها " مكانة السلطان الغورى فى العلم والأدب". ثم دأبت على استقراء سيرة هذا السلطان، فأخبرنى بعض العلماء أن الشاهنامة ترجمت نظمًا إلى التركية بأمر الغورى، وأن نسخة من هذه الترجمة فى إحدى دور الكتب باستانبول. فكتبت إلى أحد العلماء هنالك فأجابنى أنه لم يجد الكتاب فى المكتبة التى سميتها له. ومرت سنوات قبل أن أعثر فى مكتبه الأمير إبراهيم حلمى - التى أهداها الملك فؤاد رحمة الله إلى مكتبة الجامعة المصرية - على مجلد فيه نصف الكتاب المفتقد. شرعت أقرأ الكتاب فرحًا بهذا الظفر، متعرفًا اللغة التى نظم بها، متبينًا فرق ما بينها وبين اللهجات التركية الأخرى.

ثم عرفت بعد قليل أن نسخة كاملة من هذه الترجمة فى مكتبة المتحف البريطانى، فعزمت على أن أنقل صورتها إلى مكتبة الجامعة.

ثم سافرت إلى استانبول عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) لأنقب فى مكتباتها عن الشاهنامة التركية، شاهنامة الغورى، وعن كتب أخرى. وانتهى البحث

إلى أن عثـرت فى مكتبات السـلاطين العثمـانيين فى سراى طوب قـيو على نسخة من الكتاب فى مجلد واحد ضخم فيه صورة ملونة جميلة.

ويستطيع القارئ أن يقدر اغتباطى ودهشتى إذا علم أن هذه النسخة التى عثرت عليـها بعد طول البحث والتحرى هى النسـخة الأم من هذا الكتاب - النسـخة الأولى التى كـتبهـا المترجم بيـده فى القاهرة وقـدمهـا إلى السلطان الغورى.

زاد اطلاعى على مقدمة الكتاب وخـاتمته معرفتى بعناية السلطان بالأدب ورعاية أهله، فزدت إعجابًا بالرجل وإعظامًا له. وأطلعت من بعد على كتاب آخر يتـضمن طرفًا من آراء السلطان ومـحاوراته فى مجـالسه اسمـه "نفائس المجالس السلطانية" وهو نسخة فى دار الكتب مصورة عن نسخة فى استانبول هى النسخة التى كتبت للسلطان.

وينبغى أن أقول أعترافًا بالفضل لأهله إن الذى أطلعنى على هذا الكتاب وكتاب الكواكب الدرى هو العالم الفاضل الشيخ مـحمد عبد الرسول، جزاه الله خيرًا.

اجتـمع لى كتب ثلاثة ألفت للسلطان، واجـتمع لى الأمـهات من هذه الكتب - النسخ الأولى التى كتبت للغورى وقدمت إلى خـزانة كتبه. فجعلت هذه الكتب الثلاثة موضوع بـحث ألقيته فى مؤتمر المستشـرقين، الذى اجتمع فى بروكسل سنة ١٩٣٨.

ورأيت أن أطبع " نفائس المجالس السلطانيـة" كله ثم بدأ لى أن أختار منه ومن الكتـاب الآخر " الكوكب الدرى" مـا يفيى بالمـقصود، وأن أعـفى القارئ من كثير من المسـائل التافهة المتشابهة التى يتضمنهـا الكتابان، فاخترت

من الكتابين مسائل وافية بتصوير مجالس الغورى وتبين آرائه وآراء العلماء والكبراء الذين كانوا يغشون مجالسه، لتكون صفحات من تاريخ بلادنا فى القرن العاشر الهجرى.

* * *

obeikandl.com

مدخل

السلطان الغورى

- ١ -

مكانه مصر بين المماليك الإسلامية أواخر عصر المماليك، وموقفها فى تباشير العصور الحديثة بين الشرق والغرب، وصلاتها بدول أوروبا والدول الإسلامية؛ خاصة دول بنى عثمان، وقوة أساطيلها فى بحر الروم والبحر الأحمر إلى الهند، واحتلالها بعض سواحل الهند لتأمين التجارة، واصطدامها بأساطيل البرتغاليين فى المحيط الهندى، ثم نظام السلطان فى مصر إذ ذاك، وأحوال مصر العلمية والأدبية والاقتصادية - كل أولئك مجال واسع لبحث عويص مفيد ممتع ذى خطر فى تاريخ مصر والبلاد العربية والإسلامية، وتاريخ العالم كله. وعسى أن يوفق مؤرخونا إلى درس هذه المسائل وبسطها؛ فهى جديرة بالدرس والبسط، وهى من الواجبات الأولى على المؤرخين المصريين.

كان السلطان الغورى يدبر ملكًا واسعًا هو ملك مصر والأقطار التى تتبعها فى أكثر العصور - الملك الذى ذكره أبو الطيب المتنبى وهو يمدح كافورا الأخشيدة:

يدبر الملك من مصر إلى عدن

إلى العراق ، فأرض الروم فالنوب

كانت مصر والشام وبلاد العرب، وبعض الجزيرة الفراتية، وبلاد

العواصم، وهى القسم الجنوبى من آسيا الصغرى، فى سلطان ملوك مصر فى معظم العصور الإسلامية. وكانت كذلك أيام الغورى، وكان بنو رمضان الذين تسلطوا فى أذنه وطرسوس وما يليها يولون من قبل سلاطين مصر.

وبلغت الأساطيل المصرية سواحل الهند، وبنت عليها قلاعًا لحماية التجارة. وقد اجتهد الغورى زمنًا فى الاحتفاظ بسلطان المصرين فى تلك الأرجاء، على رغم البرتغاليين. وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الأساطيل والجند فى الحين بعد الحين.

وكان للغورى، ولسلاطين المماليك من قبله، الزعامة بين ملوك المسلمين، لتوليهم خدمة الحرمين الشريفين ولمكان الخلافة العباسية فى مصر. ومن يتبع الرسائل التى كانت بين ملوك مصر وغيرهم من الملوك المسلمين، ويتعرف أحوال الأقطار الإسلامية فى تلك العصور يعرف أن ملوك مصر لم يكونوا ينازعون فى هذه الزعامة. وحسب الباحث أن يقرأ الرسائل التى تراسل بها سلاطين آل عثمان ومماليك مصر. وكثير منها محفوظ فى منشآت السلاطين التى جمعها فريدون بك فى القرن الحادى عشر الهجرى.

ولهذا نجد فى تاريخ الغورى كثيرًا من أخبار الرسل أو القصاد الذين كانوا يترددون بينه وبين الأقطار الإسلامية، وغير الإسلامية. نجد رسلاً من الهند وإيران والعراق ومن قبل السلاطين العثمانيين، وأمراء آسيا الصغرى، ومن بلاد السودان والحبش، ومن بلاد الكرج وأوروبا وجزر بحر الروم. وكثير من الأمراء المغلوبين على أمرهم كانوا يلجئون إلى مصر ليستنجدوا سلاطينها أو يقيموا فيها آمنين.

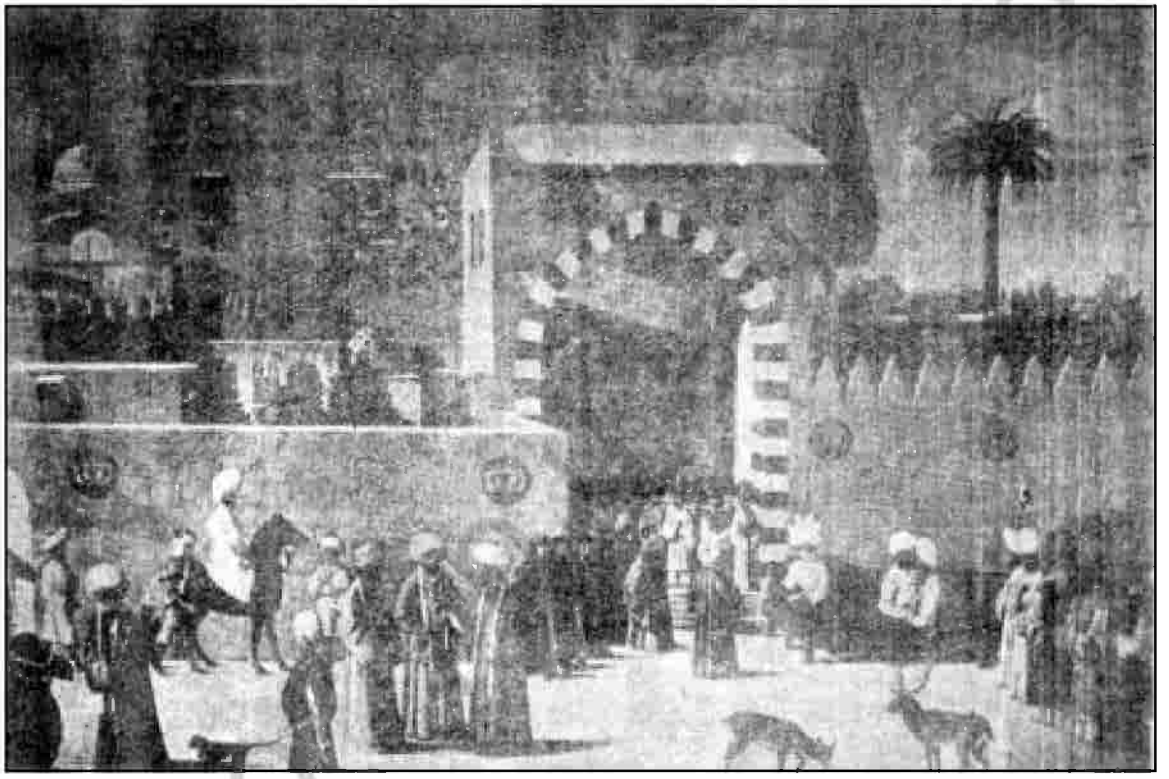

صورة تبين السلطان جالسًا على باب قصره يستقبل السفراء

يقول ابن إياس فى حوادث ربيع الأخر سنة ٩١٨ :

"ومن العجائب أن فى هـذا الشهر اجتمع عند السلطـان نحو من أربعة عشر قاصـدًا. وكل قاصد من عند ملك على انفراده. فمن ذلـك قاصد شاه إسماعيل الصوفى، وقاصد ملك الكرج، وقاصـد ابن رمضان أمير التركمان، وقاصـد من عن ابن عثمـان ملك الروم، وقاصد يوسف ابـن الصوفى خليل أمير التركمان، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب، وقاصد من مكة، وقاصد الملك محـمود، وقـاصد ابن درغل أميـر التركـمان، وقاصـد من عند نائب حلب، وقاصد من عـند حسين الذى توجه إلى الهند، وقـاصد ملك الفرنج الفرانسة، وقـاصد البنادقة، وقاصد على دولات، وغيـر ذلك قصاد من عند جماعة من النواب" .

ولا أريد أن أبين هنا مكانة مصـر وعلاقتها مع بـلاد الشرق والغرب إذ ذاك؛ فإن من أصعب المبـاحث التاريخية وأوسـعها وأكثرها إمـتاعًا أن يُدرس التنافس بين الدول الإسلاميـة المتجاورة: الدولة المصرية، والدولة العثـمانية، والدولة الصفوية، وموقف مصر بين جارتيها وبين الدول الأوربية التى تنافسها فى بحر الروم وبحر الـعرب إلى الهند، وتعرف الأسباب التى مـكنت سليمًا من أن يهزم إسـماعيل الصـفوى وقانصـوه الغورى، والأسبـاب التى أخرت الدول الإسلامية عامة عن منافسة الأوربيين فى مغامراتهم فى بحار الشرق.

إن هذه المباحث وما يتصل بها ليست مما يتـسع لتفصيله أو إجماله هذه المقدمة؛ وإنما ألمعت إلى هذه الحوادث لابين مكانة مـصر وسلاطينها فى ذلك العصـر وبين العبء الذى اضطلع به الغـورى فى تدبير أمـور مصر الـداخلية والخارجية.

وسأذكر فى الأوراق الأتية طرفًا من سيرة السلطان الغورى أجعله إيضاحًا وتكملة لما يستفاد من الكتابين اللذين أقدم لهما هذه المقدمة.

وعمدتى فى هذا تاريخ ابن إياس المؤرخ المعاصر المدقق. وقد حرصت على أن أدعه يحدث القارئ بلغته، كلما أمكن هذا؛ لأن آراء ابن أياس ولغته وأسلوبه صور من تاريخ ذلكم العصر.

٣ - كيف تولى الغورى الملك[١]:

قولى أمر مصر فى أواخر القرن التاسع الهجرى سلطان من أعظم السلاطين المماليك همة، وأحسنهم سياسة، وأكثرهم برًا، هو الملك الأشراف قايت باى. ملك من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٩٠١، فاستقرت به الأمور فى مصر بعد الاضطراب الذى عقب وفاة الظاهر خوشقدم.

وقد شغل زمنًا بمحاربة العثمانيين فى عهد السلطان بايزيد الثانى ابن الفاتح وظفر عليهم فى أكثر الوقائع، ولكنه صالحهم آخر الأمر سنة ٨٩٦ على أن يرد إليهم مدينتى أذنه وطرسوس.

ولا تزال آثار هذا السلطان الكبير ظاهرة فى مصر والحجاز.

وتلا وفاة قايت باى عهد من الاضطراب تداول فيه أمر مصر وما يتبعها خمسة سلاطين: خلفة أبنه محمد، وخلع بعد ستة أشهر، ثم عاد إلى الملك

(١) بينت فى محاضرة ألقيتها فى الجمعية الجغرافية الملكية منذ سنوات أن الضبط الصحيح لهذا الأسم هو الغورى بفتح الغين لأضمها، وكانت حجتى فى هذا أن الأسم كتب بهذا الضبط على مصحف للسلطان فى دار الكتب المصرية. وقد صدق هذا الرأى أبيات كثيرة فى الشاهنامة التركية جاء فيها الغورى فى القافية مع كلمات مثل دور، وغور، وأن الأسم ضبط هذا الضبط فى عنوان هذا الكتاب. وفى ابن أياس سجعه ترجع أنه الغورى بضم الفين ولكنها الا تكافئ الأدلة القوية التى ذكرتها (ص ١٢ الآتية).

بعد خمسة أشهر فملك ثمانية عشر شهراً، ثم قتل سنة ٩٠٤. وتوالى بعده ثلاثة سلاطين فى ثلاثين شهراً.

فلما اختفى السلطان طومان باى هربًا من المماليك اجتمع رؤساء الدولة ليختاروا سلطانًا ينتهى بولايته هذا الاضطراب.

وانقل هنا من تاريخ ابن إياس جملة تصور الحال تصوير معاصر خبير:

" وثب العسكر على العادل (طومان باى) فى سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة، واختفى فى ليلة عيد الفطر بعد العشاء. فلما أصبح ذلك اليوم وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبيرالخ[1]، ثم ظهر خوشكلدى البيسقى، وكان مختفيًا من العادل لما أراد القبض عليه. فلما تكاملوا اجتمعوا ببيت قانصوه خمسمائة الذى بقناطر السبع، فحضر إليهم الأتابكى تأنى بك الجمالى، وكان مختفيًا من حين كسر الأشراف جانبلاط وتسلطن العادل.

فلما حضر وقع الاتفاق على سلطنته أولاً، فركب من هناك وعلى رأسه الصنجق[2] السلطانى. وقد ترشح أمره إلى السلطنة. فلما طلع إلى باب السلسلة ليلى السلطنة أشيع فى ذلك اليوم أن الأشراف قانصوه خمسمائة باق على قيد الحياة. فأشهروا النداء فى القاهرة بأن قانصوه خمسمائة أن كان موجوداً فليظهر وله الأمان. وأن لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له.

فلما طال المجلس انفض العسكر من الرملة، ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا فى الحراقة بباب السلسلة، وكان يوم عيد الفطر، فاحتار كل

(١) عد ابن أياس تسعة أمراء آخرين.

(٢) الصنجق العلم.

أحد عوده إلى داره حتى يقع اختيار الأمراء على من يولوه السلطنة. فأعرض غالب العسكر عن الأتابكى تانى بك الجمالى، ولم يرض به أحد منهم. وكان الأتابكى تانى بك الجمالى أرشل معكوس الحركات فى أفعاله. وطاش لما ذكر للسلطنة. ثم آل أمره بعد ذلك إلى كل سوء. فلم تقم له السلطنة، وكانت من نصيب قانصوه الغورى. . . .

فلما رأوا المجلس مانع[1] تعصب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح والأمير مصرباى، إلى قانصوه الغورى، وقالوا ما نسلطن إلا هذا. فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع فى ذلك ويبكى، وربما كلمه مصر باى ومزق طوق ملوطته، وهو يمتنع غاية الامتناع. فحضر الخليفة المتمسك بالله يعقوب، وقاضى القضاة بعد الغنى أبن تقى المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى، وتأخر قاضى القضاه الشافعى زين الدين زكريا، وبرهان الدين الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولوه السلطنة، فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة، وشهد فيه جماعى كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء. ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى. وبايعه الخليفة. وكانت سلطنته فى يوم الأثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة.

ثم أحضر إليه شعار السلطنة، وهى الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك. كل هذا وهو يمتنه ويبكى، فلقبوه بالملك الأشرف، وسما فى علوه وأشرف، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى، وبه صارت مصر مشرقة بالنورى، وقيل:

---

(١) يعنى: لم يتفق المجلس على أمر.

ألا إنما الأقسام تحرم ساهرًا وأخر يأتى رزقه وهو نائم

ثم قدمت له فـرص النوبة بالسرج الذهب والكنبـوش. فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة، فتقدم قيت الرجبى وحمل القبة والطير على رأسه، وقـد ترشح أمره إلى الأتابكيـة. فركب الخليـفة عن يمـين السلطان، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش حتى طلع من باب سر القصر الكبـير وجلس على سـرير الملك والباقى للزوال نحـو من خمـسة وعـشرين درجة، وكان الـطالع بالسرطان، فأول من قبل له الأرض قـيت الرجبى، ثم بقيـة الأمراء شيـئًا فشيـئًا، ثم أخلع على الخليـفة ونزل إلى داره وأخلع على مصر باى وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية عوضًا عن نفسه؛ فنزل إلى داره فى موكب حـافل. ثم دقت له البشائر بالقلعة، ونـودى باسمه فى القـاهرة، وارتفعـت الأصوات له بالأدعـية الـفاخـرة، وزال ما كـان من الشكوك والظنون، وأقرت من النـاس بسلطنته العيون، فـكانت سلطنته على غير القـياس، وأشيع بأن بنيانه على غـير أساس، فصار منـه بعد ذلك الهزل جـد، ومكث فى السلطنة مكثًـا جاوز الحـد، فـزال عنه الأضرار والبـاس، وامتلأت منه أعين الناس، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده"(١).

٤ - الغورى قبل السلطنة:

الغورى جـركسى من مملوكى السلطان قـايت باى، أعتـقه وولاه بعض الأعمال فى حاشيته حتى جعل كاشفًا للوجه القبلى سنة ٨٨٦، ثم جعل أمير عشرة السنة التالية، ثم ولى بعض الـولايات فى الشام وما يتصل بها من بلاد

(١) ابن أياس حوادث سنة ٩٠٦.

العواصم. وما زال يتقلب فى المناصب ويرتقى أيام محمد بن قايت باى ومن بعده حتى ملك طومان باى وهو بالشام والغورى فى صحبته. فلما رجع إلى القاهرة ولى الغورى ما كان يليه هو من الأعمال: الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية.

٥ - حليته وأخلاقه وطرف من سيرته:

وكان فيما وصفه ابن اياس: "طويل القامة، غليظ الجسد، ذا كرش كبير، أبيض اللون، مدور الوجه، مشحم العينين، جهورى الصوت، مستدير اللحية، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً.

وكان ملكًا مهيبًا جليلاً مبجلاً فى المواكب، ملء العيون فى المنظر"(١).

وكان يميل إلى الآبهة فى ملابسه ومواكبه، كما كان ميالاً للتنقم، مولعًا بالفنون الجميلة.

قال ابن إياس:

"وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر.

وكان مولعًا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور، وكان ترفًا فى مأكله ومشربه وملبسه، ويحب رؤية الأزهار والفواكه.

وكان مولعًا بغرس الأشجار، وحب الرياضيات، وسماع الأطيار المغردة، ونشق الأزاهر العطرة والبخور.

---

(١) ج ٦ ص ٨٥ حوادث سنة ٩٢٢.

وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء، وكان يستعمل الأشياء المفرحة، وكان نهمًا فى الأكل، وكان يغوى طيور المسموع"[1].

هذه صفات تدل على رقة الطبع، ودقة الأحساس، والولوع بالجمال، والاستمتاع بالعيش.

ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالمًا جبارًا سفاكا للدماء، قاسيًا على الضعفاء.

ونحن نجد فى تاريخ الغورى ما يصدق هذه الخلايا. فأما كلفه بغرس الأشجار والأزهار واقتناء الطيور. وما يتصل بهذا من تشييد الأبنية وتجميلها فسيتأتى بيانه.

حبه الموسيقى والغناء:

وأما ولعة بسماع الموسيقى والغناء ومعرفته بهما؛ فقد اتفق على ذلك المؤرخون وشهدت به سيرته. فهو إذا أراد الاستراحة من عناء الملك خرج إلى مقياس الروضة أو قبة الأمير يشبك، التى فى حدائق القبة الآن، وأحضر خواصه وبعض المغنين والعازفين. وكثيرًا ما كان يستصحب المطربين فى أسفاره.

يقول ابن اياس فى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥:

"وفيه كان موكب العيد حافلاً، وأوكب السلطان على العادة. فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان فى اليوم الثانى من العيد، وتوجه إلى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية، وأقام هناك إلى بعد العصر. ووافق ذلك

(٦) حوادث سنة ٩٢٢ ص ٨٦.

اليوم بالمطرية، وأقام هنـاك إلى بعد العصر. ووافق ذلك اليوم عـيد النصارى وأول الخماسين، فانشرح هناك، ومد أسمطة حافلة. وحضر عنده جماعة من المغـانى وأرباب الآلات. ورسم لبعض الأمـراء العشـرات بأن يرقص؛ فقـام ورقص بين يدى السلطان فرسم له بمائة دينار".

ويقول فى حوادث المحرم سنة ٩١٨:

"وفى يوم الأحـد وهو يوم عـاشوراء، نزل السلطـان وتوجه إلى نحـو المقياس، وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك، وكان معه جماعة من الأمراء، فأقـام هناك إلى قريب المغرب وانشـرح فى ذلك اليوم إلى الغـاية، ومد هناك أسمطة حافلة. وأحضر بين يديه مغانى وأرباب آلات. ثم أن شخصًا مضحكًا يقال له على باى، الذى يعـمل عفريتًـا فى المحمل، قام فـرقص. ثم سحب الوالى كرتباى فرقـصه، ثم سحب أمير آخور ثانى أقبـاى الطويل فرقصه. ثم سحب بركات بن موسى المحتسب فرقـصه، ثم سحب عبد العظيم الصير فى فرقصه، وكان جسيمًا فضحك عليه السلطان. ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى؛ فـتخاطف ذلك المماليك. وابتهج فى ذلك اليوم".

وفى حوادث ذى القعدة سنة ٩١٨، يذكـر ابن إياس سفر السلطان إلى الفيوم، ويقول فى أثنائه:

"ولما نزل السلطان من القلعة توجه نحـو المقياس وبات به ليلة السبت. فلما طلع النهـار عدى من هناك وطلع على بر الجيـزة وتوجه إلى الوطاق[1]

(١) أصل أوتاق بالتركية موقد النار. وتقال على الدار والمخيم.

الذى نصبه عند الأهرام. وقيل إن السلطان أخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات. فمنهم محمد بن عوينه العواد، وجلال السنطيرى والبوالقة، وأبن الليمونى، وغير ذلك من المغانى".

وذكر الشريفى مترجم الشاهنامة عناية السلطان بالموسيقى، واستصحابه كبار الموسيقيين.

وللسلطان موشحات وألحان كان يغنى بها فى عصره سنذكر بعضها بعد.

ألعابه:

وكان يلهوا أحيانًا بنطاح الكباش والثيران.

يقول ابن أياس فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٢.

"وفى يوم الثلاثاء خامسة، كان ختام ضرب الكبرة بالميدان. فلما انتهى ذلك احضر السلطان ثيران وكباش يتناطحون قدامه".

وفى حوادث ربيع الآخر ٩١٨:

"وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه كان ختام ضرب الكرة بالميدان - وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين[1]. فلما انتهى ضرب الكرة قام السلطان وطلع إلى الحوش وجلس بالمقعد، وأحضروا قدامه ثيران يتناطحون وكباش".

"وفى يوم الأربعاء ثامن رمضان نزل السلطان وتوجه على نحو المطعم

(١) يعنى رسل الملوك.

بالريدانية، وجلس على المصطبة التى هناك، وأطلقوا قدامه الكلاب والصقورة والفهودة، ،أنشرح فى ذلك اليوم، ثم عاد إلى القلعة من يومه".

وكان السلطان مواظبًا على لعب الكرة فى موسم معروف، وكذلك كانت عادة سلاطين المماليك وكثير من ملوك مصر والدول الإسلامية، نجد فى حوادث كل سنة من تاريخ ابن أياس: "وفى يوم كذا بدأ السلطان بضرب الكرة، وفى يوم كذا كان ختم الضرب الكرة".

موائده:

وأما احتفاله بالطعام وموائده: فيظهر من وصف مآدبه للسفراء ولأعيان مملكته، ومنن مآدب أعيان الدولة له.

يقول ابن أياس فى حوادث المحرم سنة ٩١٥:

"ومن الوقائع اللطيفة أن فى يوم الخميس ليلة الجمعة خامس عشرة، نزل السلطان إلى الميدان، ونصب به خيمة كبيرة مدورة، وملأ البحيرة التى أنشأها هناك من ماء النيل، من المجراة التى أنشأه، ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك البحرة. وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ. وعلق أحمالاً بها قناديل، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة. وعزم على القضاة الأربعة، وسائر الأمراء من كبير وصغير، وأرباب الوظائف من المباشرين، وأعيان الناس قاطبة. وبات السلطان تلك الليلة بالميدان. وبات عنده الأتابكى قرقماس، وجماعة من الأمراء.

ومد تلك الليلة أسمطة حافلة أعظم من سماط المولد. فمد فى السماط أربعمائة صحن صينى. ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية وكل قطعة نصف

رطل. وكـان من الأوز والدجـاج والغنم مـا لا ينحـصـر. ومن اللحم ألف وخمسمـائة رطل، ومن الدجاج ألف طير، ومن الأوز خمسـمائة طير، ومن الغنم المعاليف خمسين معلوفًـا، ومن الرمسان الرضع أربعين رميسا[1]؛ حتى قيل صـرف على ذلك السماط فوق الألف ديـنار، بما فيه من حلوى وفاكـهة وسكر وغير ذلك، وكانت ليلة مشهودة".

وكذلك نجد أعيان الدولة يسرفون فى الأسمطة التى يحضرها السلطان؛ فقـد أدب القاضى كاتـب السر محـمود بن أجا للسلطـان ورجال الدولة عند مقياس الروضة، مأدبة انفق فيها سبعمائة دينار[2].

مواكبه وزينته:

وكان الغورى يميـل إلى الأبهة فى زينته وموكبه على شـدة حاجته إلى المال.

ووددت أن أمتع القارئ بوصف أحـد المواكب بلغة أبن أياس لولا ضيق المجال، فليرجع من شاء إلى الجزء الخامس ص ٢٧٦، ٤٢١.

ولكنى لا أسـتطيع إغـفـال زينة من زينات الغـورى، يرى القـارئ فى وصفها صورة من معيشة القاهرة فى ذلك العصر:

يقـول ابن إياس فى الحديث عن ذهاب السلطان إلـى المقيـاس وإقامـته هناك يومين فى جمادى الأخرة سنة ٩١٨:

"ثم إن السلطان أوقـد فى قاعة المقـياس وقده حـافلة، باطنًا وظاهرًا،

(١) الرميس: الحمل فى لغة بعض البلاد المصرية.

(٢) ابن أياس: جمادى الآخرة سنة ٩١٨.

وعلق أحمال بقناديل فى القصر الذى أنشأه هناك، وعلى شرفات المقياس قناديل فى أحمال أو أمشاط حتى أوقد جامع المقياس والمأذنة.

ثم إن سكان بر مصر[1] وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة[2].

ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وأصرف عليه نحواً من عشرين ألف دينار، فأرسلوا به قبلاه المقياس، وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط؛ فكان الذى وقد فى القياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة ألاف قنديل. ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقه فكان مصروفها نحواً من مائة وسبعين دينار مثل إحراقه نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة[3]، فشقوا بالنفط من القاهرة وهو مزفوف، وقدامه الطبول والزمور؛ فكان عدة قلاع النفط خمسون قلعة والمواذن ستون مأذنة، وأزيار عشرة، وجرار أربعين جرة، وصواريخ كبار ثلاثمائة، وماويات ألف ومائتين، وشجرات عشرة، وتنانير عشرين، وقطع ألفان، وشعل أربعين. فلما وصلوا بالنفط إلى شاطئ البحر أنزلوه فى خمسين مركب، وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البسطة، ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طلبخاناتهم فى مراكب عند المقياس؛ ففعلوا ذلك. فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات[4] مثل صوت الرعد

(١) يغنى مصر القديمة.

(٢) يظهر أنه البناء القائم اليوم على مقربة من النيل عند فم الخليج.

(٣) يعلم من هذا أن الزينات والألعاب النارية التى تشغل فى حفلات المولد النبوى اليوم بدعة قديمة.

(٤) الكوسات جمع كوس وهو بالفارسية الطبل الكبير.

باب جامع الغورى فى شارع الغورية

القاصف. فلمـا صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطـح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله وأحرقوا قدامه النفط، وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراع. وكانت ليلـة البدر فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين، وهم أربعة وعشـرون مقدم ألف. فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط؛ فـكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيـما تقدم، ولم يقع لأحد من الملوك قـبله مثل هذه الوقاعة، ولا للمؤيـد شيخ ، ولا للناصر فرج بن برقوق" .

عماراته:

وأما كلفه بتشييد الأبنية والتأنق فيها؛ فتدل عليه آثاره القائمة اليوم، وما حدث التاريخ عن آثاره التى درست.

أنشأ الجـامع والقبة والمـكتب والسبيل التى فى الـغورية، وجامـعًا عند القلعة، وبـنى خان الخليلى، وخانًـا وأحواضًا فى طريق الحـاج عند العقـبة، ورباطًا ومارستانًا فى مكة، وقصرًا عند المقياس فى الروضة، وأنشأ الميدان عند القلعة، وأحواضًا وأبنية فيه.

وعمر قاعة البـيسرية وقاعة العواميد والدهيـشة فى القلعة، وأنشأ قناطر وأبنية أخرى.

فأما الجامع فلا يزال قائمًـا بالغورية، ملتقى شارع الغورية (الذى سمى شارع المعز لدين الله)، وشارع الأزهر، وتحته السوق المعروفة باسم التربيعة" .

وننقل هنا ما يروى ابن اياس فى إتمام هذا الجامع والصلاة فيه أول مرة:

وفى ربيع الآخـر (٩٠٩) فى يوم الجمـعة مـسـتهلة خطب فى جـامع السلطان الذى أنشـأه فى الشرابـشيـين. وقد تم بناؤه وجـاء فى غاية الحـسن

باب قبة الغورى فى شارع الغورية

والتزخـرف. وصنع به مأذنه لها أربعـة رءوس. وهو أول من اتخذ ذلك. . . فكان أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشـافعى. فلبس السواد وخطب، وكان المرقى قدامه القـاضى عبد القادر القـصروى. وحضـر فى ذلك اليوم الخليـفة المستـمسك بالله يعـقوب والقضاة الأربعـة. وهم برهان الدين بن أبى شريف الشافعى، وعـبد البر بن الشحنة الحنفى، وبرهان الدين الدميرى المالكى، والشهاب الشيشينى الحنبلى. وحـضر غـالب الأمـراء المقدمـين، وولد السلطان المقـر الناصـرى، وأعيـان المباشـرين قاطبة، والجم الخـفير مـن الأمراء العشـرات والحاصكية، وأعـيان الناس، وزينت الشـرابشيـين فى ذلك اليوم، وكـان يومًا مـشهـودًا، وأخلع السلطان فى ذلك اليوم على قـاضى القضاة عبد البـر بن الشحنة، كونة حكم بصحة الخطبـة فى هذا الجامع. وأخلع على أينال شاد العمـارة خلعة حافلة، وأنعم عليـه بإمره عـشـرة، وأخلع فى ذلك اليوم عـلى عدة من المهندسـين والبنائين والمـرخمـين والـنجاريـن وغيـر ذلك مـن أرباب الصنائع ممن كـان بالجامع. وأنعم على الفعلاء لكل واحد بألف درهم.

ثم فى الجمعة الثانية رسم السلطان لقـاضى القضاة عبد البر ابن الشحنة بأن يخطب فى هذا الجامع، فخطب تلك الجمعة خطبة بليغة[1].

وفى حوادث جمـادى الآخرة سنة ٩١١ يقول ابن أياس: "وفـيه مالك مأذنة جامع السلطان الذى أنشأه بالشرابشيين. فلما تشققت وآلت إلى السقوط رسم بهدمهـا. وقد ثقلت من علوها، كون أنها بأربعـة رءوس. فلما هدمت أعيدت على الصحة. وقد بنى علوها بالطوب، وضعوا عليه قاشانى أزرق.

(١) ابن أياس ج: ص ٥٨ ، ط استانبول.

وتجاه جامع الغورى يرى الآن بناء آخر يساميه، ويشابهه فيه قبه الغورى وقاعة كبيرة للدرس، وسبيل وكتاب وحجرات قليلة. وتحت هذه الأبنية مخازن، ووراءها فناء به قبول بجانب الجدار القبلى، ويؤخذ من أبن أياس أن بعض زوجات السلطان وأولاده والسلطان طومان باى بأى الأخير دفنوا هناك.

وفى ابن أياس أخبار كثيرة عن أبنية الغورى. ومما قاله عن المدرسة:

"ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك؛ منها بأنه نقل الآثار الشريف النبوى من مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل فجعله فى مدرسته حتى عد ذلك من النوادر.

وقد تعب الصاحب بهاء الدين بن بحنا فى نقل هذه الآثار الشريف، وكان عند جماعة من بنى إبراهيم بالينبع، فلا زال يتطلف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهما بالدراهم القديمة، ثم نقله إلى الديار المصرية وبنى له مسجداً مطلاً على بحر النيل[1]. وكان الناس يقصدون الزيارة إليه فى كل يوم أربعاء. فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان به الآثار الشريف استفتى السلطان العلماء فأفتوه بنقله إلى مدفنه بالقبة وهذا بخلاف شرط الواقف. ثم أن السلطان نقل المصحف العثمانى إلى مدرسته أيضًا[2] وعد ذلك من النوادر. ثم نقل إلى المدرسة أيضًا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى كانت بالخانقاه البكتمرية التى بالقرافة. قيل أن مشتراها على الواقف ألف دينار. ولم يكتب نظير هذه الربعة سوى ربعة أخرى بخانقاه سرياقوس اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضًا، وأخرى بالمدينة الشريفة.

(١) أظنه المسجد المطل على النيل فى الساحل المسمى أثر النبى.

(٢) يذكر هذه المصحف فى كتاب الكوكب الدرى ص ٤٤ وأظنه المصحف المحفوظ فى الجامع الحسينى اليوم.

صورة قديمة تبين الشارع بين جامع الغورى والقبة. رسمها بعض السائحين

وترى فيها السقيفة التى كانت فوق الشارع

وقد وقع للأشرف قـانصوه الغورى فى مدرستـه من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود.

ولما نقل الآثار الشريف والمصحف العثمانى إلى مدرسة السلطان كان له يوم مشهود ونزل قـدامه القضاة الأربع والأتابكى قيت، وجـماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا والأعلام وهم يذكرون. . .

وفى ذلك اليوم أخلـع على الشيخ برهان الدين ابن أبى شـريف وقرره فى مشـيخة هذه المدرسـة. وقد صرف عن قـضاية القضـاة، وأنفرد بمشيـخة مدرسة السلطان واستمر بها إلى الآن"(١).

ويصف الشريفى الشاعر، الذى ترجم الشاهنامـة إلى اللغة التركية بأمر الغورى، عمارات السلطان وصفًا شعريًا يدور على الخيال والمبالغة، ولكنه ينم عن حـقائق. فـهو يصف القـبة ويبـين علوها، وأنهـا لونت باللون الأزرق. ويصف الجامع والسـوق التى تحته، ويصف الخـانقاه التى بجانب القـبة وهى القاعة الكبيرة الجميلة التى إلى يسار الداخل. ويقول فى هذه الخانقاه: " يقرأ فيها العلم الألهى، ويتلى القرآن والأوراد فى الأسحار، ولها شيخان وثمانون صوفـيا يقـرءون مرتين كل يوم، وبهـا مائتـان من أصحـاب الوظائف (يعنى الجرايات) منهم من يعطى الخبز كل يوم ومنهم من يعطى وظيفته مشاهرة(٢).

ويقول فى السبـيل الذى يلاصق الخانقاه: "وبجانب الخانقاه سـبيل كأن ماءه سلسبيل، يشرب الناس منه ليل نهار وفيه خدام لا يغيبون نهارًا ولا ليلاً؛ فإذا غاب أحد السقاة أناب غيره".

(١) ابن أياس حوادث جمادى الأولى سنة ٩١٠.

(٢) انظر كذلك كتاب نفائس المجالس ص ٦٠.

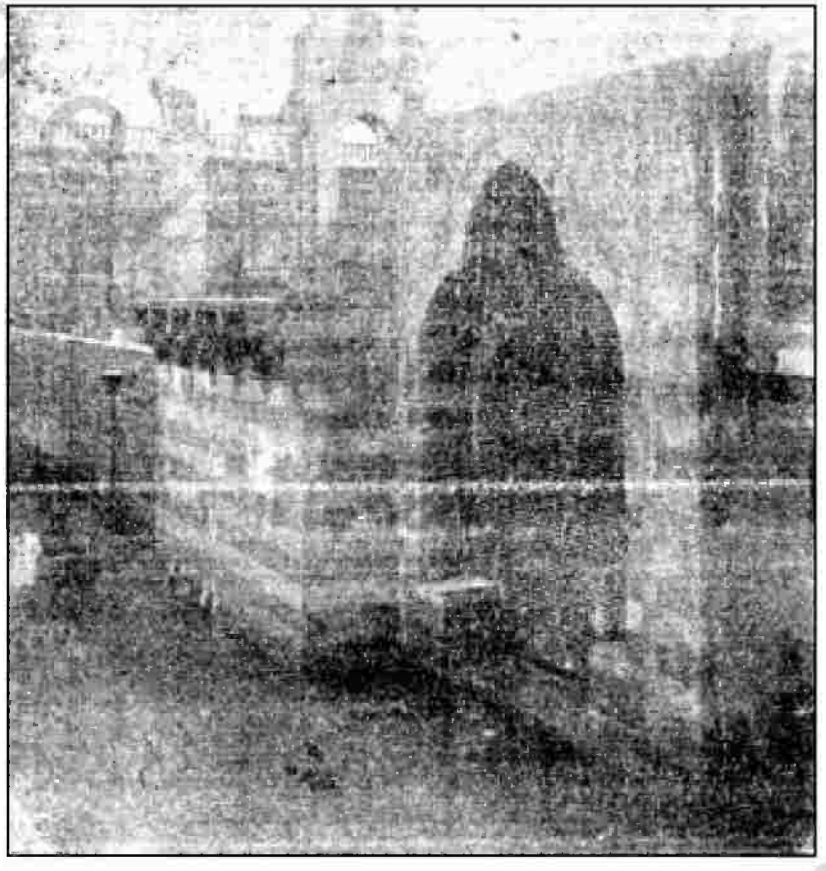

باب من آثار الغورى يرى اليوم فى شارع الصليبة

متصلا بدار أحمد بك إحسان

ويقول فى المكتب الذى فوق السبيل: "وبنى فوق السبيل مكتبًا يقرأ فيه الأيتام إلى العصر، وفيه مؤدب يعلمهم ويريبهم".

وكذلك نجد الكلام عن عمارات السلطان فى كتاب النفائس[1].

ولعه بالحدائق والأزهار:

وأماه ولعه بالحدائق والأزهار وإجراء المياه فى الحدائق واتخاذ الحواض والنافورات فيدل عليه ما فعل فى ميدان القلعة.

وهذا الميدان وصفه الشاعر الشريفى، وذكره ابن أياس كثيرًا. يقول فى حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٤:

"وفيما كان انتهاء العمل من المجراة التى أنشأها السلطان كما تقدم فدارت هناك الدواليب وجرى الماء فى المجراة حتى وصل إلى الميدان الذى تحت القلعة.

ثم إن السلطان صنع هناك سواقى نقالة، وبنى ثلاثة صهاريج تمتلئ من ماء النيل برسم المماليك الذين يلعبون الرمح فى الميدان، وشرع فى بناء بحرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان فكان طول تلك البحرة نحوًا من أربعين ذراعًا، وقيل أكثر من ذلك. وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان".

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥.

"وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرمها السلطان بالميدان وأخرجت ما شتله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك

(١) ص ١٢٦ وما يليها.

من الأزهار الغريبة. ولقد عاينت به وردًا أبيض ذكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر.

فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطمعة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل ينطع، ويجلس عليه، وتظله فروع الياسمين، وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه. ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزازات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع. ويطلق بين الأشجار دجاج حبش وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة - إلى أن يقول - وقد صار هذا الميدان جنة على الأرض".

تدينه وبره بالفقراء

كان الغورى دينًا محافظًا على فروض الدين، شديدًا على من يفرط فيها، وكان يعد من علماء الدين فى مصر. كما يتبين فيما يأتى.

وكان كلما حزبه أمر أو حلت بالبلاد قارعة أو خشى عليها نازعة فزع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى قراءة القرآن والحديث والدعاء، والبخارى يقرأ فى رمضان ويختلف بختمه فى القلعة، وهى سنة قديمة.

يقول ابن أياس فى حوادث رجب سنة ٩١٥:

وفى رجب نادى السلطان بألا يتجاهر الناس بالمعاصى، ولا يمشى بسلاح بعد المغرب، وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس فى الجوامع.

وفى حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ أن النيل زاد فى هاتور ثمانية أصابع

فتضرر الناس، "فرسم السلطان للقضاة الأربع بأن يتوجهوا إلى المقياس، ويدعوا إلى الله تعالى فى هبوطه. فتوجهوا هناك وباتوا بالمقياس. وقرأ السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة حافلة، فأنهبط فى تلك نحو من نصف ذراع. فعد ذلك من الوقائع الغريبة".

ويصف الشريفى صلاة السلطان وتهجده بالليل ودعاءه، فى خاتمة الشاهنامة[1].

وكان برا بالفقراء كثير الصدقات. أنشأ رباطًا ومارستانًا فى مكة ورباطًا فى مصر، وأجرى فيها الصدقات.

كان يحب أن يتصدق على الفقراء بيده؛ نجد فى ابن أياس مثل هذه الحوادث:

المحرم سنة ٩١٢: "وفيه فى يوم عاشوراء أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء والحرافيش ونزل السلطان بنفسه ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج، وصار يعطى لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة وكبير وصغير اشرفى ذهب، فوقع الأزدحام بين الفقراء حتى قتل منهم ثلاثة أنفار، من شدة ازدحامهم، فكان كما يقال فى المعنى.

فيالك من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل.

وقيل أنه فرق فى ذلك اليوم نحوًا من ثلاثة آلاف دينار فارتفعت الأصوات له بالدعاء. فلما رأى ازدحام الفقراء لم ينزل مرة أخرى ولم يفرق شيئًا، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى".

(١) س ١١٦٣ - ٦٤.

فى رمضان سنة ٩١٥: "نزل السلطان إلى الميدان فوقف إليه جماعة من المغاربة نحو من سبعين إنسان ما بين رجال ونساء وقد قصدوا الحج فى هذه السنة، فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط".

وفاؤه:

وكان وفيًا برًا بأصحابه وأولياء نعمته؛ بقى طول عمره يذكر سيده قايتباى بالخير ويعظمه. قال ابن أياس فى حوادث ذى القعدة سنة ٩١٥: "نزل السلطان وسير وتوجه إلى نحو تربه الأشرف قايتباى فنزل عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على قبره، وقرأ له الفاتحة ثم رسم للبوابين وللصوفية بمائة دينار".

ونجد فى كتاب النفائس تعظيمه قايتباى[1].

ونجد فى موضع آخر حزنه على أحد رجال دولته وهو الأشرف قرقماس. يقول ابن أياس فى وصف جنازته (رمضان سنة ٩١٦): " فلما وصل إلى سبيل المؤمن خرج السلطان من الميدان وهو راكب وأتى إلى سبيل المؤمنى، فنزل عن فرسه ودخل للصلاة؛ فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله وهو فى النعش وبكى عليه بكاء كثيرًا. فلما صلوا عليه حمل نشعه ومشى به خطوات حتى أخذوه منه الأمراء".

محاسن الغورى كما أجملها ابن أياس:

يقول ابن أياس فى حوادس رمضان سنة ٩٢٢: "فأما ما عدا من محاسنه؛ فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب، وليس له بادرة

(١) النفائس ص ١١١.

بحده عند قـوة خلقه. ومنها أنه كان له اعـتقاد زايد فى الصالحـين والفقراء. ومنها أنه كان يعـرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم. ومنهـا أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غـضبه. ومنها أنه كان يفـهم الشعر ويحب سمـاع الآلات والغناء، وله نظم على اللغـة التـركية. وكـان مغـرمًا بـقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار. وكان قريبًا من الناس يحب المزاج والمجون فى مجلسه[1]، غير كـثيف الطبع فى ذاته. وكان عنده لين جـانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس".

مساوئ الغورى:

كان الغورى فى حاجة إلى مال كثير ينفق منه على الجند ليسكن ثوراتهم المتكررة، وليـزود الجيوش التى يرسلهـا إلى أطراف المملكة وإلى الهند، كـما يتفق فى بناء الأسـاطيل. وكانت التجارة قـد كسدت بما أخاف الفـرنجة سبل البحار. وفى صفحات ابن أياس أمـثلة من الحادثات التى أكسدت التجارة فى عهد الغورى؛ فى حوادث المحرم سنة ٩٢٠:

"وكـان فى تلك الأيام ديوان المفـرد وديوان الدولة وديوان الخـاص فى غـاية الأنشحـات والتعـطيل. فإن بندر الإسكنـدرية خراب ولم تدخل إليـه البـضائع فى السنة الخـالية، وبندر جـدة خراب بسـبب تعبث الأفـرنج على التجـارة فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبـضائع إلى بندر جـدة نحواً من ستة سنين. وكذلك جهة دمياط".

ويقول فى حـوادث ذى الحجة من السنة عـينها، أثناء الكلام فى سـفر السلطان الغورى إلى الإسكندرية يؤمئذ أحد من أعيان التجارة لا من المسلمين

(١) انظر بعض فكاهاته فى الكواكب الدرى ص ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٦.

ولا من الفـرنج، وكانت المدينة فى غـاية الخـراب بسبب ظلم النائب وجـود القباض؛ فـأنهم صاروا يأخذوا من التـجار العشر عـشرة أمثال فامـتنع بحار الفرنج والمغـاربة من الدخول إلى الثـغر؛ فـتلاشى امر المدينـة وآل أمرها إلى الخراب حـتى قيل طلب الخـبز بهـا فلم يوجد ولا الأكل، ووجد بـها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح".

لهذه اشتدت حاجة السلطان إلى المال واشتد حرصه على جمعه وكثرت مصادراته، وأسف فيها إلى درك لايلائم همته وسيرته.

يقول ابن أياس فى حوادث جمادى الأولى سنة ٩١٦:

"وفى هذه الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين، حتى إنه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة، وقرر عليهم مال له صورة وقال لهم أنتوا عملتوا كيمان تراب تحت القلعـة من عفشكم ما يشتالك ولا بعشرة آلاف دينار، وجعل ذلك حجة عليهم".

وفى حوادث رمضان سنة ٩١٨:

"وفيه كان مـا وقع لرئيسه المغانى، وهى امرأة يقال لهـا هيفة اللذيذة. وقد رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المال، ولها حلة للكبرا. فلما سمع السلطان ذلك قبض عليها وأقامت فى التـرسيم، وعرضت للضرب غير مامرة، وقرر عليها خمسة آلاف دينار؛ فباعت الحلى وجميع ما تملكه وأوردت ألف دينار. وقد تكلم لهـا القاضى بركات بن موسى بأنهـا لا تملك غير ذلك فقـرر عليها بعـد ذلك خمسمـائة دينار ترد فى كل شهـر مائة دينار على كل جامكية[1]. وقد طفل السلطان نفسه إلى مصادرة المغانى أيضًا والأمر لله".

(١) الجامكية مـا يرتب للجند وغيرها من المال أو الطعـام واللباس وأحسبه مـأخوذًا من لفظ الجبة بالفارسية.

وكان المال وسيلة إلى المناصب حتى مناصب القضاء أحيانًا. فى حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٠:

"وفيه أخلع السلطان على شخص يقال له طراباى. وكان طراباى هذا ولى الأتابكية بحلب، ثم حضر إلى مصر وسعى فى نيابة صفد بمال له صورة حتى تولاها".

وفى ذى الحجة سنة ٩٠٦:

وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل قاضى القضاه زين الدين زكريا الشافعى عن القضاء، وهذا كان آخر عزله وولايته، وقد كف بصره عقب ذلك.

فلما عزل زكريا سعى محيى الدين بن عبد القادر بن النقيب فى عوده إلى القضاء. وقد أورد مال له صورة. فأخلع عليه، وأعيد إلى القضاء".

وأكثر مساوئ الغورى ترجع إلى كثرة نفقاته وقلة دخله واضطراره إلى أخذ الأموال بكل الوسائل.

وإذا رجعنا إلى ابن أياس نجد جل المساوى التى ذكرها، من هذا القبيل[1]. ولولا هذه الضرورات لبرئت سيرة هذا الرجل الهمام مما اقترف من هذه المصادرات.

مكانة الغورى من معارف عصره:

لم تكن المعارف منتشرة مزدهرة فى مصرى فى عصر الغورى. وإذا نظرنا إلى الأبحاث والمجادلات التى كانت فى مجالس هذا السلطان، عرفنا

(١) حوادث رمضان سنة ٩٢٢.

ضيق الأفكار وقلة المعارف، والولع بسفاسف الأمور والقصور عن جلائلها.

ولكن ينبغى ألا نعد هذه المجالس مصورة معارف علماء مصر فى ذلك العهد، فإن كبار العلماء كانوا يتورعون عن هذه المجالس. فقد عاش بمصر فى عصر الغورى علماء كبار مثل جلال الدين السيوطى، والسخاوى، والقسطلانى، وزكريا الأنصارى، ولم تذكر أسماؤهم فى هذه المجال؛ بل القضاه الأربعة الذين يذكرون كثيرًا فى شئون ذلك العصر، ولهم بالدولة والسلطان صلة مستمرة، قل أن يذكر أحدهم فى مجالس الغورى.

ويتبين من تاريخ الغورى، ومن أقواله التى يتضمنها الكتابان: نفائس المجالس والكوكب الدرى، ومما كتبه الشريفى مترجم الشاهنامة، أن السلطان كان ذا حظ من العلوم الدينية: التوحيد والفقه والتفسير، مشاركًا فى علوم العربية: النحو والبلاغة وغيرها، وأنه كان مولعًا بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص، وأنه كان ذا ملكة يتفهم بها الأدب وتزين له أن يشارك فى النظم أحيانًا، وأنه كان مولعًا بالموسيقى والغناء، وكان له نظم وألحان يتغنى بها، وأنه كان يعرف لغات عدة.

وعناية السلطان بالعلم والأدب ومشاركته فيهما، وولعة بمطالعة الكتب، مهدت السبيل لمبالغة المادحين، وتخيل الشعراء.

يقول الشريفى فى خاتمة الشاهنامة:

له سوز أكلسة علم ومعرفتدن

سن أنك عارفيسن هرجهتدن

دلك هر معرفتدن أولدى محظوظ

ضـميـر كدر صناسن لوح مـحفـوظ

"ما تذكر كلمة من العلم والمعرفـة إلا أنت محيط بها. وقد أوتى قلبك حظًا من كل معرفة، كأن ضميرك اللوح المحفوظ".

ويقول:

نه فن أولســـه سنك أنده ألك وار

له يردن سـوز آجلسـة مـدخلك وار

نجـه مـــشكل كـه أورلمـز أكـا أل

سـن إيـدرسـن أنى إدراكـلـه حـل

أكـر إنشـأ أكـر شـعـر وغـز لدر

أكـــر علم وأكـــر بحث وجـــد لدر

كـرورز طابك أنـده بحـر زاخـر

سـزوكـه خلق حيـران أول آخـر(١)

" لك يد فى كل فن، لك مشـاركة فى كل موضـوع، وكم مشكل لا تناله الأيدى حلـلتـه بإدراكك، الإنشـاء والشـعـر والغـزل والعلم والبـحث والجدل، كل هذه نراها فيك بحرًا زاخرًا. لقد تحير الخلق فيك".

وفى مقدمة الكتابين الآتيـين ما يبين عن غلو المؤلفين فى مدح السلطان بالعلم وسعة المعرفة(٢).

(١) الشاهنامة ص ١٦١ ، ٦٢.

(٢) انظر كذلك الكواكب الدرى ص ٤٢.

فأمـا مشاركتـه فى العلوم الدينية، فدليلهـا فى صفحـات الكتابين، لا تخلو منه بضع صفحات متتابعة. ولـست فى حاجة إلى التمثيل هنا؛ فحسب القارئ أن يلقى نـظرة على بعض الصفحـات. وفى الشاهنامـة مدح السلطان بمعرفة الفقه والتفسير وأنه يديم مطالعة التفاسير.

وأما مشاركـته فى علوم العربية فتدل عليـها بعض المجالس، كالمجلس الثامن من كتاب النفائس[1]، والسؤال الذى فى آخر صفحة ٦٣ من الكواكب الدرى.

وأما ولوعة بالتاريخ والسير والـقصص؛ فقد أخبرنا به ابن أياس[2] وقد اخبرنا به كذلك الشريفى مترجم الشاهنامة، يقول:

تواريخ وحكايا تيله أخبار اقينر صحبتندة جملة تكرار

"تقرأ فى صحبته دومًا التواريخ والحكايات والأخبار".

ويقول فى سـبب ترجمـة الشاهنامة، إن السلطان كـان مولعًـا بالقراءة وعنده خزانه فـيما ضروب الكتب. وكـان فيها نسـخة من كتاب الشـاهنامة، فأمره بترجمتها إلى التركية إلخ.

وفى الكتابين اللذيـن نقدم لهما هذه المقـدمة ما يصـدق قول أبن أياس والشريفى. ومن أمثلة هذه ما فى صفحة ٦٦، ١٣٠ من كتاب النفائس. وفى الكواكب الدرى أن إسـمـاعـيل الصـفوى أهدى إلى الـغورى كـتـاب تاريخ التتار[3].

(١) النفائس ص ٢٠.

(٢) حوادث رمضان سنة ٩٢٢، وص ٢٣ السابقة.

(٣) الكواكب ، ص ٧٣.

وأما بصرة بالشعـر والغناء والموسيقى، وقدرته على المشاركة فيـها؛ فقد أخبرنا بهـما أبن أياس والشريفى متـرجم الشاهنامة، ودل عليهـما ما أثر من نظم السلطان وموشحاته.

فأما ابن أياس؛ فقد نقلنا أنفًا قوله، وهو يعدد محاسن الغورى:

"ومنها أنه كـان يفهم الشـعر ويحب سمـاع الآلات والغناء، وله نظم على اللغة التركية"(١).

وأما الشريفى، فقـد قدمنا قوله فى معرفة السلـطان الشعر والإنشاء(٢) ونزيد هنا قوله فى مقدمة الشاهنامة(٣):

نه فن أو لرأسه أند ندر خـبير أول

هرايشـده تكرى كـسترمش أكـايول

بار شـعـر ومـعـمى فننى خـوب

غـزل إنشـا إدر دركـيـبى مـرغـوب

نبـيك مـدحنـى توحـيـد بارى

دمش كم كـيـدر أيـشـيـدن قـرارى

"ما كان من فن فهـو خبير به، قد هداه الله فى كل أمر طـريقًا. يجيد فن الشعر والمعمى، وله غزل مرغوب كالدر.

وقد قال فى توحيد البارى ومدح النبى ما بلغ به الغاية".

(١) ص ٣٣ السابقة.

(٢) ص ٤٠ السابقة.

(٣) الشاهنامة التركية ص ٩.

وفى كتاب النفائس ذكر موشحين من موشحات السلطان[1].

ويبن أيدينا نماذج قليلة من نظمه، وعسى أن يهدى البحث إلى منظومات أخرى، وفيما يلى إجمالى الكلام فيما لدينا من نظمه:

١ - موشح ملمع أثبته صاحب كتاب نفائس المجالس فى آخر الكتاب. وهو عشرة أبيات، أوله:

يا إلهى بن كنه كار؛ أنت غفار الذنوب.

عيبمى يوزيمه أورمه؛ أنت ستار العيوب.

قاموا إشارسا كه معلوم؛ أنت علام الغيوب.

بن فقيبرية قل عنايت؛ أننى أرجو رضاك.

٢ - وقصيدتان وموشحان بالعربية وموضح تركى أثبتها الشيخ محمد راغب الطباخ فى كتابه تاريخ حلب، من مجموعة من شعر الغورى عند بعض أدباء حلب.

بالملك أنعم ربنا الرحمن وهو الكريم المنعم المنان

فله علينا الشكر حق واجب يقضيه قلب مخلص ولسان

يذكر فى هذه القصيدة أمراء دولته وجنده، ويدعو الله أن يؤلف قلوبهم، ويجمعهم حوله.

والقصيدة الثانية ثلاثة وعشرون بيتًا، وأنشأها فى نصف شعبان، وفيها حث على إحياء ليلة النصف، ودعاء له ولجنده ورعيته. وأولها:

---

(١) النفائس ص ٦٣ ، ٦٤.

لله فى أيامنا نفحات من دهرنا تزكونها الأوقات
فيها ألا فتعرضوا وتضرعوا فيها، تجاب لكم بها الدعوات
هذى مواسمها لنا قد أقبلت ودنا بموعدها لنا ميقات

وأحد الموشحين العربيين من نغم الحسينى، وهو عشر أبيات. وأوله:

ربنا أدم لنا نعمًا جدت لى بها كرمًا
فيضها حكى ديمًا بالغمام منهلة

والثانى كتب فوقه: "من نغمة المصرية علو محير يهبط على عشاق العجم".

وهو اثنا عشر بيتًا أولهما:

جل من لنا وهبا ملك مصر وأكتسبا
حيث سبب السببا فى قديم علم الله

والموشح الثانى ملمع بين العربية والتركية، وهو عشرة أبيات أولها:

كز لرم يا شينه رحم أيت يا رحيم
سائلى رد أيت يا رحيم
سائلى رد ايلمز هركز كريم
رب هب لى من لدنك رحمة
تب علينا أن تواب رحيم
حق جمالن استرز، جنت ندر؟
كورنر جنت بزة انسز جحيم الخ.

صفحة العنوان من كتاب الشاهنامة التركية

وأما معرفة اللغات فالعربية والتركية لا تحتاجان إلى بيان وقد ذكر الشريفى فى الشاهنامة معرفته الفارسية. وروى مؤلف النفائس أن السلطان قال فى أحد المجالس أنه يعرف كثيرًا من الألسن، وعد سبع لغات[1].

الغورى والشاهنامة:

قدم إلى مصر أحد شعراء التركية فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر، وهو رجل عربى الأصل شريف النسب اسمه حسين بن حسن بن محمد الحسينى الأمدى، ولعله فر إليها، إذ كان من المقربين إلى الأمير جم أبن السلطان الفاتح. وبقى فى مصر حتى توفى سنة ٩٢٠. ولا ندرى متى قدم إلى مصر، ولكنا نعرف أنه اتصل بالسلطان أو سنة من ملكه، فأمره بترجمة إلى التركية، مع أن السلطان يعرف الفارسية.

ولا ريب أن السلطان أراد أن يقرن أسمه بهذا الكتاب الخالد، كما اقترن به اسم السلطان محمود الغزنوى، الذى قدم إليه الأصل الفارسى، وكما اقترن به اسم الملك المعظم الأيوبى الذى أمر بترجمته إلى العربية.

فى مقدمة الكتاب وخاتمته نحو الألف بيت. ويبدأ المؤلف بالتحميد ومدح الرسول والخلفاء، على سنة شعراء الفرس والترك، ثم يكر سيرة مماليك مصر منذ سنة ٩٧٠هـ؛ يذكر قايتباى والملوك الذين خلفوه فى فترة الاضطراب التى بينه وبين الغورى، ثم يفيض فى مدح السلطان، ثم يبين سبب نظم الكتاب، ثم يشرع فى ترجمة الشاهنامة. وفى الخاتمة يمدح السلطان ويبين أنه نظم الكتاب اسمه واتمه فى دولته، ويتكلم عن أخلاق السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب، ومعرفته لغات كثيرة، ومشاركته فى

(١) نفائس المجالس ص ١٣٢.

الإنشاء والشعر، ونظمه فى توحيد الله ومدح الرسول، وإلمامه بالموسيقى، ونظمه موشحًا للغناء، وولعه بقراءة التواريخ إلخ. . . ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم، ويذكر المغنين والموسيقيين الذين يطربون السلطان فى مجالسه.

ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفًا مفصلاً، فيعدد تسعًا منها.

والخلاصة أن فى مقدمة الكتاب وخاتمته ما يكشف عن بعض تاريخ الغورى، ولا سيما الجانب الأدبى منه، ويبين طرفًا من تاريخ مصر، بعد حساب المبالغات الشعرية.

مجالس السلطان الغورى:

يقول الشريفى، ناظم الشاهنامة باللغة التركية، فى مقدمة الكتاب:

شهـا خوش مـجلسك وارد جنب آرا

أو مـجلسده قمونسنه مهيا

حقيقتده علومك منبعى در

د كل شك أول أفاضل مجمعى در

أو مجلسده أولر مشكل لر آسان

نه مجلس كم أودر باغ وكلستان

أقينر أنده هر دلجه عبارت

أولر قانونله رمز وإشارت

"ما أجمل مجلسك أيها السلطان، إنه يشبه الجنة، كل شئ مهيأ فى

هذا المجلس، إنه فى الحقيقة منبع العلوم، ومجمع الأفاضل بلا ريب. مجلس تيسر فيه المشاكل. أى مجلس هذا؟ إنه حديقة وبستان تقال فيها العبارات بكل اللغات. وتسير على قانونه الرموز والإشارات".

كان للسلطان مجالس تجمع العلماء والكبراء، وتطرح فيها للبحث مسائل شتى.

وقد سجلت كثيرا من مسائل هذه المجالس فى كتابين يصوران تصويرا حسنا كثيرا من أحوال مصر فى عهد السلطان الغورى:

١ - كتاب نفائس المجالس السلطانية، فى حقائق الأشرار القرآنية: ألفه حسين بن محمد الحسينى، وهو شريف كما يؤخذ من اسمه ومن عبارات فى ثنايا الكتاب، ويظهر أنه ساح فى إيران والبلاد الشرقية. وهو يعرف التركية فقد نظم بيتين بالتركية فى رثاء ابن السلطان الغورى، وروى من شعر حسين بيقرا[1] وفد على مصر فأقام عشرة أشهر شهد فيها مجالس السلطان الغورى، وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان السلطان والعلماء يتكلمون فيها.

والعجمة ظاهرة فى كتابته حتى اسم الكتاب؛ فقد سماه "نفايس مجالس السلطانية فى حقائق أسرار القرآنية"، فحذف اللام من المجالس والأسرار.

والنسخة التى بأيدينا هى النسخة التى كتبت للسلطان وأهديت اليه.

وقد جعل المؤلف كتابه فى مقدمة وعشر روضات والمقدمة قصيرة

(١) النقائس ص ٢١، ١٣٤.

تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغورى. والروضات العشر يذكر فى كل واحدة منها مجالس السلطان فى شهر. وكانت المجالس تجتمع فى كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثا.

وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائه. وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر، وآخرها مجالس رجب. فهى عشر روضات فى أحد عشر شهرًا؛ لأن السلطان لم يجلس فى شهر ذى القعدة لوفاة ولده محمد.

والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته،ويذكر الإمام الذى يحضر المجلس وكبار الحاضرين، ثم يذكر المسائل التى طرحت للبحث فى المجلس.

يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرتضى السلطان جوابه أو يناقشه، وأحيانًا يبدأ أحد الحاضرين الكلام. وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية ومنها ألغاز فى موضوعات شتى، وقصص عن الملوك وغيرها.

وأحيانًا يصف محافل السلطان. يصف، مثلا، إحياء السلطان الولد النبى، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا، وما فعلوا فى هذا المحفل، ويبين كيف جلس السلطان ليلا وكيف يتقدم إليه كبار الدولة وينشد كل منهم شعرا فى مدحه وكيف يقابلهم السلطان. وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم "وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض" وأنشده:

إن الخلافـة ثوب قد خـصصت به

إذا لست فـلم يفـــضل ولم يعـــز

ما أودع الله فى أحد احداقنا بصرا

إلا لنفـــرق بين الـدر والخـــرز[1]

وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر فى التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: "الجرس من الغساسنة فهم عرب" وكالبحث فى شروط الإمامة فى مجلس السلطان وقول مؤلف الكتاب: فإن لم يوجد من يستوفى الشروط من ولد إسماعيل جاز أن يولى واحد من الـعجم أو من ولد إسحاق، وقوله بعد هذا: الحـمد لله والمـنة، والجركس من ولد إسـحـاق وجمـيع هذا الشـرائط موجودة فى السلطان الأعظم[2].

بل نجد فى الكتاب بحثًا صريحًا فى نـيابة الغورى عن الخليفة العباسى، وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه فى الأمور الشرعية، ويشتد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء فى هذه المسألة، فيحقر المؤلف الخليفة ويعظم السلطان، ثم يذهب يستفتى العلماء ويأخذ خطوطـهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة[3].

ويرى القارئ أحـيانًا اهتـمام السلطان بتـعليم المماليك وإحـضارهم من حيث إلى آخر إلى مجلسه، ليقرءوا أمامه ويمتحنهم[4].

---

(١) النفائس، مجالس ربيع الأول.

(٢) النفائس ص ١٠٨

(٣) النفائس ص ١٠٠ فما بعدها.

(٤) النفائس ص ٦٦، ١٣٠.

هكذا يجد القارئ فى الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها فى كتب التاريخ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره، ويتبين مقدار اطلاعهم ومدى تفكيرهم.

٢ - والكتاب الثانى اسمه الكوكب الدرى فى مسائل الغورى، وهو يحتوى على ألفى مسأل وأجوبتها من المسائل التى وقع البحث فيها فى مجالس السلطان الغورى أيضا. ولدينا الجزء الأول من الكتاب وفيه ألف مسألة فى ٣٣٨ صفحة. والنسخة مكتوبة فى عهد الغورى. ويظهر أنها نسخة المؤلف. وعليها خطوط ثلاثة من علماء وقته المعروفين يشهدون بأنهم اطلعوا على الكتاب منهم عبد البر ابن الشحنة قاضى قضاه الحنفية. وبعض هذه الخطوط مؤرخ بالسنة التى تم فيها كتابة هذا الجزء.

ويقول المؤلف فى آخر الكتاب: "وكان الفراغ منه فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة تسع عشر وتسعمائة".

وفى مقدمة هذا الكتاب شبه بمقدمة الكتاب الأول، وبعض عباراتهما واحدة، وبين تاريخهما زها عشر سنين.

وفى الكتابين مسائل مشتركة مثل سؤال نكاح الشبهة، والإكراه على سب النبى[١].

وهذا الكتاب ليس مقسما على المجالس كالكتاب السابق، بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل. والمطلع على الكتاب يرى صورا من أفكار علماء مصر وأمرائها فى ذلك العصر؛ يرى إلى المسائل الدينية، وهى معظم الكتاب،

(١) الكوكب الدرى ص ٥٢، ٨٣.

مسائل تاريخية، وجغرافية. ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عمن بنى الأهرام، أو عن زرقة السماء[1]، أو السؤال عن كيومرث أول ملوك الشاهنامة أكان قبل نوح أو بعده[2]، أو عن شهر المحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجرى، أو هل الأرض أفضل أم السماء. ويجد القارئ فى الحين بعد الحين فكاهة من السلطان أو نادرة، ويعرض فى المجالس ذكر الملوك المعاصرين والأمراء الذين وفدوا على السلطان كأبناء بايزيد وسليم. ويرى بعض الأسئلة الدينية التى سألها هؤلاء الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه.

لا ريب أن هذا الكتاب، على تفاهة معظم المسائل التى يدور عليها البحث، يصور بعض النواحى الفكرية والاجتماعية فى مصر والعالم الإسلامى فى ذلك العصر.

* * *

(١) الكوكب الدرى ص ٥٤، ٨٨.

(٢) الكوكب الدرى ص ٩٠.

الصفحة الأولى من كتاب نفائس المجالس

الصفحة الثانية من كتاب نفائس المجالس